الآراء البلاغـــ
في كتاب مجاز القـــ

د/رابح دوب
رئيس جامعة الأمير عبدالقادر
قسنطينة -الجزائر-

يخطئ كثير من الباحثين في الدراسات الفنية للقرآن عند وقوفهم أمام رؤية أبي عبيدة في «مجاز القرآن» فينفون عنه معرفته للمجاز وسواه من دروس البيان والبلاغة وأنه لم يعرف المجاز الذي هو قسيم الحقيقة مع اعترافهم بأنه أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز.

وأنه كان في تفسيره الى النظرة اللغوية أقرب (1).

وبعد قراءة متأنية لكتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة نجد أن هذا الكلام في حاجة الى بيان، وأنه على عمومه بعيد عن الصواب...

وإذا كان أبو عبيدة لم يرد من كلمة المجاز التي جعلها عنوانا لكتابه المعنى الاصطلاحي للمجاز، فإن هذا الكلام ليس على عمومه، وإنما هناك تخريجات مجازية عديدة نهج في بيانها نفس المنهج الذي نهجه سيبويه والفراء.

وهذه بعض الإشارات البلاغية في مؤلفه، والتي تؤكد صدق ما نقول.

خروج الاستفهام :

إن جميع الباحثين والمفسرين للقرآن في تلك الحقبة المتقدمة وقفوا عند خروج الاستفهام عن معناه الوضعي الى معان أخرى بلاغية، وأطالوا الوقوف.

وأولهم في هذا المضمار هو أبو عبيدة صاحب مجاز القرآن. من ذلك قوله تعالى : «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»(2).

يقول هذا الكلام هو اخبار خرج مخرج الاستفهام، وليس هذا إلاّ في ثلاثة مواضع هذا أحدها.. والثاني : لا أبالي أقبلت أم أدبرت؟.. والثالث : ما أدرى أوليت أم جاء فلان»(3).

ومن الأمور المسلم بها أن أصل الاستفهام : هو طلب فهم ما هو غير مفهوم عند المستفهم، فإذا استعمل الاستفهام في غير هذا فقد خرج به الى غير جهته.

وهذا ما فطن له أبو عبيدة.. فرأى أن الاستفهام في قول علم الغيوب «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» إنما هو إخبار من الله تعالى لرسوله عليه السلام بأن الكافرين لا يؤمنون في حالي إنذاره لهم› وترك الانذار.

ولا ريب أن هذا خبر محض، وإن جاء في صورة الاستفهام(4).

وفي موضع آخر من مجاز القرآن نرى أبا عبيدة يذكر ضابطين آخرين يجيئ فيهما الاستفهام بمعنى الخبر، وهما :

أ – بعد لا أبالي–

ب – بعد النفي (ما أدري) وما أشبهها

وقد سبق أن خروج الاستفهام الى غير معناه معدود عند علماء البلاغة من قبل المجاز المرسل الذي علاقته الإطلاق والتقيد.

وقد قال أبو عبيدة في قوله تعالى «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»(126) جاءت على لفظ الاستفهام، والملائكة لا تستفهم ربها، ولكن معناها «الإيجابي، أي أنك ستفعل، وقال جرير فأوجب ولم يستفهم لعبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح(6).

وقال معلقا على بيت جرير في موضع آخر(7) لم يستفهم، ولو كان استفهاما ما أعطاه عبدالملك بن مروان مائة من الابل برعاتها، والحقيقة أن أبا عبيدة أصاب في تخريجه لبيت جرير فهو بلا خلاف استفهام أريد منه التقرير والايجاب.. أي أنتم خير من ركب المطايا، أما الآية الكريمة فليس قوله فيها أنها للإيجاب بمسلم على إطلاقه، بل الظاهر من السياق أن الاستفهام للإنكار(8)

وهذا ماختاره محمد بن جرير الطبري في أحد تأويلاته المأثورة في توجيه قوله تعالى في هذه الآية..

وقال : «إن الملائكة التي قالت هذا الكلام استتيبت فتابت»(9) ثم ذكر تأويلين آخرين :

أحدهما : أنه استفهام حقيقي سألت فيه الملائكة ربها أن يخبرها عن سر ذلك الجعل والتأويل.

ثانيهما : أنه استفهام استعظام.

وفي قوله تعالى : «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله»(10)

قال : «هذا باب تفهيم، وليس باستفهام عن جهل بعلمه، وهو يخرج مخرج : «الاستفهام، وإنما يراد به النهي عن ذلك، ويتهدد به(11)

وفي قوله تعالى : «هل يستويان مثلا»(12)

قال : «وليس موضع هل هنا موضع الاستفهام، ولكن موضعها هنا موضع الإيجاب» أنه لا يستويان، وموضع تقرير وتخبير أن هذا كله ليس كذلك(13)

وفي قوله تعالى : «أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون»(14)

قال : «ليس باستفهام بل توعد»(15)

والأمثلة كثيرة في هذا الباب، والذي يهمنا هنا هو الملحظ البلاغي لأبي عبيدة في خروج الاستفهام عن معناه الى غرض آخر سواء أصاب أبو عبيدة في التخريج أم أخطأ...

المجاز المرسل :

ومن المجاز المرسل المختلف العلاقات غير ما تقدم في خروج الاستفهام نجد أبا عبيدة في تناوله لبعض آيات من القرآن وتفسيره لها يقول : في قوله تعالى : «والسماء بنيناها بأيد»(16)

أي "بقوة" فهذا مجاز مرسل علاقته الآلية أو المحلية لأن اليد آلة القوة ومحلها.

ووجه اليد في موضع آخر بأنها "الخير"(17)

ومنه توجيهه لقوله تعالى : «ونسبح لك» حيث فسر التسبيح بالصلاة، فقال : «نصلي لك، نقول قد فرغت من سبحتي أي صلاتي»(18)

ونقول : يجوز حمل اللفظ "نسبح" على معناه الوضعي، أي نقول : سبحان الله فليس بلازم أن يكون مجازا، وعلى القول : بأنه "الصلاة" فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية، لأن

ومنه قوله تعالى : «أرنا مناسكنا» وقال : «علمنا» ثم استشهد بقول حطائط بن يعفر :

أريني جوادا مات هزلا لأنني أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا

فهذا كذلك مجاز مرسل علاقته السببية، لأن من رأى شيئا فقد علمه، ومثله قوله تعالى: «ورضيت لكم الإسلام دينا»(19)، قال «أي اخترت لكم» فهو مجاز مرسل علاقته، إما اللزومية لأن الرضا ملازم للاختيار-وأما السببية- لأن الرضا سبب في الاختيار.

وفي قوله تعالى : «وأرسلنا السماء عليهم مدرارا»(20)

قال : «مجاز السماء هاهنا : مجاز المطر، يقال : مازلنا في سماء أي مطر، وما زلنا نطأ السماء أي أثر المطر، وأني أخذتكم هذه السماء؟ ومجاز أرسلنا أنزلنا وأمطرنا(21).

وهنا يكاد أبو عبيدة يقترب من المجاز المألوف عند المتأخرين... فقد اشتهر عند علماء البيان أن السماء بمعنى المطر مجاز مرسل علاقته المجاورة، أما تأويله : أرسلنا بأنزلنا فهو مجاز لغوي استعاري، شبه فيه الإرسال بالإنزال بجامع البلوغ في كل، والسر -والله أعلم- جعل المطر كأنه يسعى لإرواء الناس ونفعهم.

ولا يبعد حمله على الاستعارة المكنية(22).

وفي قوله تعالى : «ربنا أفرغ علينا صبرا»(23) قال : «أنزل علينا»(24)

فهو على هذا مجاز مرسل علاقته السببية، لأن الإفراغ سبب في الإنزال. ويجوز حمله على الاستعارة المكنية، بتشبيه الصبر بالماء، ثم حذف المشبه به ورمز له ببعض خواصه وهو «الافراغ» والسر - والله أعلم- إن الصبر يطهر النفس من أمراض الجزع والفرار، والماء يطهر البدن من الأردان.

وفي قوله تعالى : «ويقبضون أيديهم»(25) أي يمسكون أيديهم عن الخير والصدقة، يقال : قبض فلان عنا يده، أي منعنا(26)

فاستعمال قبض اليد في المنع يجوز جعله مجازا مرسلا علاقته السببية، فهو قد دخل معنا -هنا- ويجوز اعتباره كناية عن صفة البخل، ويجوز جعله استعارة تمثيلية بأن تشبه هيئة البخيل بهيئة القابض على يديه، في أن كلا من البخيل، والقابض، لا يفعلان الخير.

وفي تفسيره لقوله تعالى : «لكم فيها دفء ومنافع»(27)

قال : «ما استدفئ به من أوبارها، ومنافع سوى ذلكَ»(28) وهذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون.

وفي تفسيره لقوله تعالى : «فليدع ناديه»(29) أي أهل مجلسه(30) وهذا صالح لنوعين من ألوان البيان البلاغي :

أولا : المجاز المرسل الذي علاقته المحلية، والثاني : المجاز العقلي وذلك بإيقاع الفعل : «يدعو» على غير ما هو له، والقرينة في كل امتناع دعاء النادي بمعنى المكان.

ومثله قوله تعالى : «واسأل القرية»(31).

وقد لمح الاستعمال المجازي فيها كل الرواد : سيبويه، الفراء، ابن قتيبة، أبو عبيدة(32).

كما أشار أبو عبيدة الى نوع آخر من المجاز المرسل، وهو خروج الأمر من الطلب الى التوعد والتهديد؛ فقد قال في قوله تعالى : «اعملوا ما شئتم إنه بما تعلمون بصير»(33) قال : «لم يأمرهم بعمل الكفر إنما هو توعد»(34)

وخروج الأمر الى غير الطلب -على أي وجه كان- معدود من صور المجاز المرسل الذي علاقته الإطلاق والتقييد -مثل الاستفهام- وبهذا يكون أبو عبيدة في مجاز القرآن قد مهد للقول بهذا النوع من المجاز(35).

المجاز العقلي :

وكتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة، لايخلو من الإشارات الواضحة الى بعض صور ما عرف بعده بالمجاز العقلي، أو الإسنادي أو الحكمي

ومن ذلك على سبيل المثال : في قوله تعالى : «... والنهار مبصرا»(36)

فقد قال فيه : «له مجازان : أحدهما : أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل، والمعنى أنه مفعول، لأنه ظرف يفعل فيه غيره لأن النهار لا يبصر، ولكنه يبصر فيه الذي ينظر، وفي القرآن الكريم «في عيشة راضية»(37)، وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها..

قال جريـر :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت، وما ليل المطي بنائم

والليل لا ينام، وإنما ينام فيه، وقال رؤبة الراجز :

فنام ليلي وتجلى همي(38)

ومنه تحول مدلول الأدوات والحروف... يقول : ومن مجاز الأدوات اللواتي لهن معان في مواضع شتى، فتجيء الأداة تتفق في بعض تلك المعاني، وقال الله تعالى «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها» معناه فما دونها- «والأرض بعد ذلك دحاها» معناه مع ذلك(39) ومنه، الانقلاب في المدلول الى الضد، فقد ينقلب معنى وراء الى قدام في قوله تعالى : «من ورائه جهنم» مجازه قدامه وأمامه، يقال إن الموت من ورائك أي قداماك، قال :

أتوعدني وراء بني ريـاح كذبت لتقصرن يداك دونـي

أي قدام بني رياح(40) ولا نزاع في عد "مبصرا"، وصفا للنهار مجازا عقليا أسند فيه الإبصار الى غير ما هو له : «والعلاقة هي المفعولية وقد أشار الى هذا أبو عبيدة نفسه حيث قال : «إن العرب وضعوا أشياء من كلامهم موضع الفاعل والمعنى أنه مفعول» وكذاك: في عيشة راضية، وكلامه فيها واضح.

ومن ذلك قوله تعالى : «كمثل الذي ينعق بما لا يسمع»(41)

والمعنى على الشاة المنعوق بها، وحول على الراعي الذي ينعق بالشاة... والعرب تريد الشيئ فتحوله الى شيء من سببه.

يقول : اعرض الحوض على الناقة، وإنما تعرض الناقة على الحوض(42)

ومن ذلك قوله تعالى : «خلق الإنسان من عجل»

يقول : مجازه مجاز خلق العجل من الانسان، وهو العجلة والعرب تفعل هذا(43)

ومنه التغير في الصيغة : بزيادة في الحروف كأن يكون مدلول مطر غير مدلول أمطر في تفسيره لقوله تعالى : «أمطر علينا حجارة من السماء»(44).

مجـازه : أن كل شيء من العذاب فهو : أمطرت بالألف، وإن كان من الرحمة فهو مطرت(45)

ويهتم أبو عبيدة كثيرا بصيغة "أفعل" في القرآن مثل قوله تعالى : «وهو أهون عليه» -مجازه وهو (هين عليه) لأن أفعل يوضع موضع الفاعل(46)

المجاز الاستعاري :

هناك درس بلاغي هام في التوجيه المجازي نلمسه في كتاب أبي عبيدة «مجاز القرآن» وهو يفسر ايات كثيرة من القرآن الكريم وهو المجاز اللغوي الاستعاري.

والكتاب حافل بهذا النوع من الدرس البلاغي، حيث أشار الى عدة أنواع من الاستعارة حسبما استقر عليه الوضع عند المتأخرين من الباحثين في علوم البلاغة.

لقد أشار الى الاستعارة التصريحية بفرعيها : الأصلية والتبعية، كما أومأ الى صور من التبعية كالتجوز في معنى الفعل، وفي زمنه، وفي معنى الحرف، والاستعارة المكنية، وصرح باسم الكناية : وهي كما هو معلوم فيها جانب الحقيقة وجانب المجاز..

ولفت الأنظار الى المجاز بالحذف، وهو -أحيانا- يبين أصل استعمال الكلمة بعد تأويله المجازي لها.. وكثيرا ما يؤيد مذهبه في العبارة بمأثور كلام العرب، ممهدا له بقوله : والعرب تفعل ذلك، ثم يمضي في التمثيل،.. وكذلك نراه قد أشار الى ما عرف بالاستعارة التمثيلية، أو المجاز المركب.

وبذلك وبما سوف نذكره من الأمثلة والنماذج من تفسيره لتلك الصور من صور الاستعارة يتجلى لنا :

أولا : أن المجاز عند أبي عبيدة ليس كما يدعي البعض بأنه ليس قسيم الحقيقة وأن هذا القول ليس على عمومه.

ثانيـا : أن المجاز عرف قبل القرن الرابع بالمعنى الاصطلاحي الذي عرفه به المتأخرون(47)

في قوله تعالى : «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا»(48)

يفسر أبو عبيدة المرض بالنفاق والشك، وتشبيه النفاق والشك بالمرض استعارة أصلية. لوقوع التشبيه بين اسمين جامدين، والجامع ما يترتب على كل من النفاق والشك والمرض من الاضرار والمفاسد، والقرينة هي امتناع أن يكون المرض العضوي للقلب سببا

في وصف صاحبه بالنفاق(49)

وفي تفسيره لقوله تعالى : «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى»(50) يقول : «شبه بالعرى التي يتمسك بها»(51)

وتفسير أبي عبيدة هنا صريح في فهم المجاز والإشارة إليه حيث أدرك أن الايمان الحق شبه صاحبه بمن يمسك بعروة وثقى وهي عقدة الحبل، ومن كان هذا حاله فهو متثبت بما استمسك به.

وهذا كما يقول الزمخشري تمثيل للمعلوم، والنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حيث يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده، والتيقن به»(52)

وفي تفسيره لقوله تعالى : «ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا» يفسر «الإصرار» بالثقل(53)

فقد استعير «الثقل» وهو الحمل المادي للأصر بمعنى التكليف الشاق وهو أمر معنوي... وسمي الإصر، إصرا لأنه يأصر صاحبه -أي يحبسه- فكأنه لا يستقل به لثقله، استعير للتكليف الشاق من نحو قتل النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة من الثوب والجلد وغير ذلك.(54)

فهذه استعارة تصريحية أصلية شبه فيها التكليف الشاق على النفوس بالحمل الثقيل على الحامل بجامع ما يترتب على كل من المعاناة والخطر.

وفي تفسيره لقوله تعالى : «تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي»(55)

فقد فسر «الحي» بالطيب، و«الميت» «بالخبيث»

وسواء كان رأيه صوابا أو غير صواب فالاستدلال به على إدراك المجاز في الأسلوب صحيح، فهو من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية(56)

وفي تفسيره لقوله تعالى : «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون»(57)

فقد فسر أبو عبيدة «الوجه» بالأول لأن الوجه من أي شيء هو أول ما يرى، ويعرف به صاحبه فهي استعارة تصريحية أصلية.

ومما صح حمله من كلامه على الاستعارة التمثيلية تفسيره لقوله تعالى : «..وكنتم على

شفا حفرة من النار فأنقذكم منها»

فقد فسر «الشفا» بركبة البئر وحروفها(58)

وأيضا في تفسيره لقوله تعالى : «.....إلا بحبل من الله وحبل من الناس» فقد فسر «الحبل» بالعهد.. قال : إلا بعهد من الله.

قال الأعشـــى : (59)

وإذا تجوزها حبال القبيلة أخذت من الأخرى، إليك حبالها

واستعمال الحبل في العهد مجاز على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية بجامع الاستيثاق في كل.

– وفي تفسيره لقوله تعالى : «ضربت عليهم الذلة والمسكنة..»(60)

قال : «الزموا المسكنة».

وعلى ظاهر قوله تكون العبارة استعارة تصريحية تبعية، وهذا جائز فيها، لكن الأولى فيها أنها استعارة مكنية، شبهت فيها المذلة بالخيمة التي تضرب وتحيط بهم وتحبسهم، ثم حذف المشبه، ورمز له بخاصة من خصائصه، ويكون المعنى أن الذلة والمسكنة ملازمان لهم أينما حلوا(61)

– وفي تفسيره لقوله تعالى : «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»

قال : «مجازه فجربوا وليس من ذوق الفم»(62)

وعلى هذا تكون الاستعارة تبعية

– ومن الاستعارات الصريحة تفسيره لقوله تعالى : «وتذهب ريحكم»(63)

فقد قال : «تنقطع دولتكم»(64)

– ومن صور المجاز المركب تفسيره لقوله تعالى : «...إلاّ هو آخذ بناصيتها»

قال «إلاّ هي في قبضته وملكه وسلطانه»(65)

وصف اللفظ هنا واجب لاستحالة إرادة معناه اللفظي في جانب الله فهو استعارة تمثيلية شبهت حالة النفوس في كونها متصرفة لله يصنع بها ما يشاء، بهيئة قابض على آخر من ناصيته فهو لا يستطيع الإفلات منه لتمكنه من السيطرة عليه وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس.

ومثله في البيان القرآني، في تفسيره لقوله تعالى : «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام»(66) إلا أن هذا أكد من الأولى، لاختلاف المقام»(67) مع الوفاء بالمعنى.

– وفي تفسيره لقوله تعالى : «...فردوا أيديهم في أفواههم»(68)

قال : «مجازه مجاز المثل» والمثل : «ماكرر في تشبيه حاله بحالة» شبهت فيه حالة الكاتم للحق مع وجوب البيان بحالة الراد يده ممسكا عن النطق، ويجوز جعله كناية عن الامساك لجواز إرادة المعنى الأصلي –هنا–

– وكذلك ذهب أبو عبيدة في تفسيره لقوله تعالى : «فأتى الله بنيانهم من القواعد»(69) هذا المذهب فقال : «مجازه المثل والتشبيه»(70)

وهذه دلالة صريحة على تذوقه لأخص درس من دروس البلاغة وعلامة واضحة على عمق استعماله للمجاز في القرآن الكريم... وفيه تقرير ووضوح على تصويره للمعنى المراد، ومبالغة في تسيير عملهم، فكأن الله –سبحانه وتعالى– عمد عمدا الى تقويض ما بنوا(71)

– ونحا نفس المنحنى في تفسيره لقوله تعالى : «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك»(72)

فقال : «مجازه في موضع قولهم : لاتمسك عما ينبغي لك أن تبذل من الحق، وهو مثل وتشبيه»(73)

– وفي تفسيره لقوله تعالى : «وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا»(74)

قال : «مجازه : وعمدنا الى ما عملوا»

وقد أخذ الرماني فيما بعد نفس توجيه أبي عبيدة، وسلك الآية في صور الاستعارة مع زيادة في التحليل(75)

– أما الاستعارة في زمن الفعل نراه في تفسيره لقوله تعالى : «أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه»(76) قال فمجازه، فسقناه مجاز فنسوقه، والعرب قد تضع فعلنا في موضع نفعل، قال الشاعر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا مني وما يسمعوا من صالح دفنوا

فالأصل «يطيروا» ووضع الماضي موضع المضارع استعارة في الفعل من حيث زمنه لا

من حيث معناه، وسره البلاغي تحقق الوقوع حتى لكأنه حدث فعلا.

- أما الاستعارة في الحرف، فقد مهد لها في توجه وتفسير قوله تعالى حكاية عن قول فرعون للسحرة : «لأصلبنكم في جذوع النخل...»(77)

قال : «أي على جذوع النخل، مثل قول الشاعر سويد اليشكري :

همو صلبوا العبدي «في» للدلالة على شدة غيظ فرعون من السحرة لما آمنوا وخذلوه، فكأنه من شدة صلبه يدخلهم في جذوع النخل حنقا وتشفيا.

- وكذلك أشار اليها في قوله تعالى : «وإن كنتم مرضى أو على سفر»(79) قال : أو «في سفر»(80)

فاستعير «على» لـ «في» لأن «على» أوفى بالمعنى المراد -هنا- كما كانت «في» أو في بالمعنى المراد في آية طه السابقة.

فالسفر سير وتنقل، فكأنه مطية تطير بالمسافرين فتمنعهم بعض التصرفات في شئونهم، فناسب ذلك تخفيف الشرع عنهم، وتيسير التكاليف المطلوبة منهم.

وهنا وقفة هامة إذ لا يقال : إن أبا عبيدة لم يصرح بالتجوز فكيف تعدون هذا من باب المجاز واستعارة الحروف؟ لأنا نقول : إنه رائد مهد بهذا القول للمجاز، ولم يصرح، ويكفي أنه لحظ أن هذا، بمعنى هذا هنا، وذاك بمعنى ذاك...

ومما تقدم يتضح :

أن أبا عبيدة قد استوعب بتلك الإشارات صورا عدة من الاستعارة التصريحية أصلية وتبعية.

أما الاستعارة المكنية فقد أشار إليها في عدة مواضع دفعة واحدة، أسند فيها فعل الآدميين- وقد سبق الحديث عن ذلك، وكان مثله مثل الفراء وسيبويه في ذلك.

ومن مجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر الناس، قال : «رأيت أحد عشر كوكبا، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين»(81)

وقال : «أتينا طائعين»(82)

وقال للأصنام : «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون»(83).

وقال : «يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده»(84)

وقال : «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا»(85)

وقال : «كل في فلك يسبحون»(86)

قال أبو عبيدة(87) : «ومجاز الموات (يعني الجمادات) الذي أجري مجرى الناس في القرآن»

فهذه كلها تجري مجرى الاستعارة المكنية، أو أن ذلك جائز فيها.

الكناية :

ولم يفت أبو عبيدة أن يصرح باسم الكناية، ويخرج عليها بعض الآيات القرآنية وإن كان يجمع بينها وبين التشبيه، والرواد حسبهم أن يضعوا منارات على الطريق وما عليهم من شيء إن لم يدركوا كل شعابه وتعرجاته(88)

ومن إشاراته في مجازه للكناية :

ما قاله في تفسيره لقوله تعالى : «أو جاء أحد منكم من الغائط» قال كناية عن حاجة ذي البطن والغائط الفيح من الأرض المتصوب وهو أعظم من الوادي(89) ثم كرر القول فيه في موطن آخر فقال : «كناية عن اظهار لفظ قضاء الحاجة في البطن»(90) وطبق نفس التفسير على قوله تعالى : «أو لامستم النساء»(91)

فقال : «كناية عن الغشيان»(92)

وما ذهب إليه في «الغائط» أحد وجوه جائزة في الآية الكريمة، ومنها اعتبار الغائط مجازا مرسلا علاقته المكانية من تسمية الشيء باسم محله الغالب عليه.

كما : يجوز حمل الكلام على حقيقته لأن ما يجب منه الوضوء غائط فعلا سواء كان ماء أو غيره.

أما ملامسة النساء فهي تتردد بين ثلاثة احتمالات أحدها ما ذكره أبو عبيدة وهو الكناية عن الجماع.

والثاني : أنه مجاز لا كناية.

والثالث : أن حقيقة عند من يرى أن لمس النساء باليد ونحوها ناقص للوضوء، ....

وأبو عبيدة طبق فكرة الكناية على قوله تعالى : «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن»(93)

فقال : «كناية وتشبيه»(94)

ويرى الدكتور عبدالعظيم المطعني : أن هذا خلط من أبي عبيدة، والصحيح عنده في الآية الكريمة أن ذلك تشبيه بليغ لا كناية(95).

وقال أبو عبيدة في تفسيره لقوله : «ما يملكون من قطمير»(96)

قال : «هو الفوقة التي في النواة»(97)

ومعنى هذا أنه كناية عن شدة افتقارهم وعدم امتلاكهم شيئا ولو حقيرا.

ومن أوضح ما قال في التخريج الكنائي في تفسيره لقوله تعالى : «فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها»(98).

قال : «أي فأصبح نادما، والعرب تقول ذلك للنادم : أصبح فلان يقلب كفيه ندما وتلهفا على ذلك وعلى ما فاته»(99)

فهذا تخريج كنائي واضح، لأن تقليب الكفين إنما هو كناية عن صفة هي الندم والتحسر

المجاز بالحذف :

لم يخل «مجاز القرآن» لأبي عبيدة من الحديث في عدة مواضع عن المجاز بالحذف، فقد أشار الى ذلك عند شرحه لقوله تعالى في شأن اليهود «... وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم»(100)

قال في تفسيره : «سقوه حتى غلب عليهم، مجازه مجاز المختصر».

«أشربوا في قلوبهم حب العجل» وفي القرآن : «واسأل القرية : مجازه، أهل القرية»(101).

فهذا له -بلاغيا- تفسيران، إما أن يكون مجازا عقليا بإيقاع الفعل على ما ليس له في الآيتين، والعلاقة هي المكانية فيهما، لأن العجل مكان الحب، والقرية مكان الأهل.

وإما أن يكون مجازا مرسلا بإطلاق المحل وإيرادة الحال، والقرينة هي استحالة إشراب العجل من حيث أنه عجل، وسؤال القرية من حيث أنها قرية.

والسر البلاغي في كل منهما : الاعتناء ببيان المعنى المراد، ففي الصورة الأولى، كأنهم

من شدة حبهم العجل كادوا يضعونه في قلوبهم بلحمه وعظمه ودمه.... وفي الصورة الثانية إدعاء إخوة يوسف أن أمر سرقة أخيه «بنيامين» قد اشتهر وذاع حتى كادت القرية وهي جماد تقر به لو سئلت عنه؟!

وفي تفسيره لقوله تعالى : «فليدع ناديه»(102) ذهب نفس المذهب فقال : «أهل مجلسه...»

وفيه مجاز مرسل أو مجاز عقلي.... والتخريج واضح كما سبق.

المشاكـلة :

المجاز ليس داخلا في مفهوم المشاكلة، فقد يقع التشاكل بين لفظين، ولا مجاز في واحد منهما، وقد يكون فيهما أو في أحدهما، وهو هنا الثاني، مجاز، ولكنه ليس شرطا كما قلنا في تحقيق التشاكل، والفرق كبير بين وجود الشيء مشروطا ووجوده غير مشروط.

وباعتبار الأصل في المشاكلة، وهو عدم توقف وقوعها على المجاز- يكون من المستبعد أن نذكر المشاكلة في دراسة تستهدف أصلا تتبع صور الدرس البلاغي في مرحلة النشأة على أيدي الرواد الأولين -كأبي عبيدة- ولكنا رأينا أن أبا عبيدة حين يتعرض لبعض النصوص والايات القرآنية التي عدها البلاغيون -بعده من صور المشاكلة- رأيناه يتحسس بذوقه الفني أن في التعبير خروجا ما عن أصل الاستعمال اللغوي، فأعمل فكره ليوضح سر ذلك الخروج..

وقد سلك أبو عبيدة في هذا المجال طريقين :

أ - فهو يعمد -أحيانا- في النص القرآني الى تأويل اللفظ الثاني تأويلا مجازيا صارفا معناه الى ما يتفق ومنهج القرآن الكريم من تنزيه الله سبحانه وتعالى أن يوصف بما توصف به الحادثات وهو القديم الأزلي، الذي ليس كمثله شيء، وهذه الطريقة هي الغالبة عليه في هذا المجال..

ب - أو يعمد الى اللفظين معا فيؤولهما تأويلا مجازيا ليستقيم المعنى وأصول الاعتقاد، ويزول الإشكال.

ولهذا آثرنا أن نعرض لهذا اللون البديعي لدخوله بهذا الاعتبار، وكذلك بالاعتبار الأول

في صميم الدرس البلاغي عند دارسي القرآن ومفسريه في تلك المرحلة من الزمان.
فقد قال في تفسير قوله تعالى : «ومكروا ومكر الله...»(103).
فقال : «أهلكهم الله»(104)

فأول المكر الواقع في جانب الله -لاستحالة المكر المعروف منه سبحانه- بالإهلاك، فهو مجاز مرسل علاقته ما سيكون، لأن عاقبة المكر السيّء هي العقاب الشديد- ومنزل العقاب هو الله.

ونراه في آية أخرى شبيهة بهذه، يؤول اللفظين تأويلا مجازيا فقد وقف أمام قول الحق: «وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا، قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون»(105)

وهنا يؤول أبو عبيدة المكر ويفسره، فالمكر من الناس «مجاز المكر ها هنا مجاز الجحود بها -أي بالنعمة- والرد لها»
وفسر المكر من الله فقال : «أي أخذ وعقوبة واستدراجا لهم»(106)

وتفسير اللفظين هنا مختلف، فكل منهما أوله بما يناسبه ويليق به. وفي موضع آخر يؤول اللفظين تأويلا مجازيا متفقا، ومن ذلك كلامه في قوله تعالى : «فاليوم ننساهم، كما نسوا لقاء يومهم هذا..»(107)

وقوله سبحانه : «وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا»(108) يقول في **الآية الأولى** : «مجازه نؤخرهم، ونتركهم كما تركوا أمر ربهم وجحدوا يوم القيامة(109) ويقول في الآية الثانية : «أن نترككم في جملتكم كما تركتم أمرنا...»(110).

هذا قول أبي عبيدة في تفسير المكر. وهذا التفسير صريح في الإشارة الى أحد دروس البلاغة! وهذا شيء لا يحتاج الى توضيح أكثر لأن المكر حقيقة : صرف الغير عما يقصده (الماكر) بحيلة (111) وهذا المعنى لا يليق بالله عز وجل(112).

والخلاصة فإن أبا عبيدة ومعه سيبويه والفراء الجميع يؤكد حضور الدرس البلاغي في الدراسات القرآنية وفي تفسير آية الذكر الحكيم منذ القرن الثاني الهجري..
وإذا كان الدرس البلاغي في كتاب سيبويه عبارة عن ومضات خاطفة، وسريعة، فلقد كان عند الفراء أكثر ظهورا وعمقا ووفرة، وكان عند أبي عبيدة قد طرق مناحي بلاغية لم ترد

عند سيبويه ولا الفراء ولا وجه للمقارنة بين الفراء وأبي عبيدة وسيبويه لاختلاف موضوع الدراسة بينهم، وإنما المقارنة بين الفراء وأبي عبيدة لاتحاد موضوع الدراسة عندهما، وهو القرآن الكريم وتفسيره.

ويكاد الرجلان يتحدان في الزمن لضآلة المدة بين وفاتيهما «ثلاث سنين» ومع هذا الاتفاق فإن أبا عبيدة أومأ الى ظواهر بلاغية لم ترد عند الفراء كالمشاكلة مثلا مع تفوقه على الفراء -أيضا- في كثرة الصور البلاغية التي أشار إليها.

ونؤكد مرة أخرى أن مفهوم المجاز عند أبي عبيدة ليس كما ادعى البعض بأنه كل تعبير وردت عليه الآية وأدت به معناها هو مجازها، وطريق مرورها الى المعنى...

وأن هذا المفهوم الذي ذكره الإمام ابن تيمية (113) ليس على عمومه، وإنما كان له مفهوم ثان تجلى في كثير من دروس البلاغة كما فهمها المتأخرون بعد ذلك.. وما سبق من صور عديدة في تفسيره لآيات من القرآن يؤكد ذلك..

الهوامش

1 - راجع في ذلك بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ فتحي عامر ص14- وكتاب الإيمان لإبن تيمية ص35-
2 - البقرة 26.
3 - مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ1 ص231.
4 - المصدر نفسه جـ1 ص38.
5 - البقرة 230.
6 - مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ1 ص236.
7 - المصدر نفسه جـ1 ص184.
8 - مجاز القرآن للمطعني جـ1 ص39.
9 - جامع البيان للطبري جـ1 ص165,159.
10 - المائدة 116.
11 - مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ1 ص278.
12 - هود 24.
13 - مجاز القرآن جـ1 ص278.
14 - الطور 15,13.
15 - مجاز القرآن جـ2 ص231.
16 - الذاريات 47.

17 – مجاز القرآن جـ1 ص170.
18 – المصدر نفسه جـ1 ص36.
19 – المائدة 3.
20 – الأنعام 6.
21 – مجاز القرآن جـ1 ص176.
22 – المجاز للمطعني جـ1 ص41.
23 – البقرة 250.
24 – مجاز القرآن جـ1 ص3.
25 – التوبة 67.
26 – مجاز القرآن الكريم جـ1 ص263.
27 – النحل 5.
28 – مجاز القرآن جـ1 ص353.
29 – العلق 17.
30 – مجاز القرآن جـ1 ص100.
31 – يوسف 82.
32 – المجاز للمطعني جـ1 ص44.
33 – فصلت 40.
34 – مجاز القرآن جـ2 ص107.
35 – المجاز للمطعني جـ1 ص45.
36 – يونس 67.
37 – القارعة 7.
38 – مجاز القرآن جـ1 ص279.
39 – أثر القرآن في تطور النقد الأدبي ص44,43.
40 – المرجع نفسه ص45.
41 – البقرة 171.
42 – مجاز القرآن جـ1 ص63.
43 – أثر القرآن في تطور النقد الأدبي ص44,43.
44 – الأنفال 32.
45 – أثر القرآن في تطور النقد الأدبي ص45.
46 – المرجع نفسه.
47 – راجع في هذا : البحث البلاغي للشحات ص20 وما بعدها والبان القرآني لرجب البيومي ص213 وما بعدها والقرآن والصورة لعبد القادر حسين ص9.
48 – البقرة 10.
49 – المجاز للمطعني جـ1 ص48.

50 – البقرة 256.
51 – مجاز القرآن جـ1 ص79.
52 – الكشاف جـ1 ص387.
53 – مجاز القرآن جـ1 ص84.
54 – الكشاف جـ1 ص408.
55 – آل عمران 27.
56 – المجاز للمطعني جـ1 ص50.
57 – آل عمران 72.
58 – مجاز القرآن جـ1 ص98.
59 – المصدر نفسه جـ1 ص101.
60 –البقرة 61.
61 –المجاز للمطعني جـ1 ص51.
62 – مجاز القرآن جـ1 ص26.
63 –الأنفال 25.
64 – مجاز القرآن جـ1 ص247.
65 – المصدر نفسه جـ1 ص248.
66 – الرحمن 41.
67 – الإية الأولى في حال الدنيا، والثانية في حال الآخرة يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه.
68 – ابراهيم 9.
69 – النحل 26.
70 – مجاز القرآن جـ1 ص359.
71 – المجاز للمطعني جـ1 ص53.
72 – الاسراء 29.
73 – مجاز القرآن جـ2 ص73.
74 – الفرقان 23.
75 – النكت في إعجاز القرآن للرماني ص86.
76 – فاطر 9.
77 – طه 71.
78 – مجاز القرآن جـ2 ص24.
79 – النساء 43.
80 – مجاز القرآن جـ2 ص24.
81 – يوسف 4.
82 – فصلت 11.
83 – الأنبياء 65.

84 - النمل 18.
85 - الإسراء 17.
86 - يس 40.
87 - مجاز القرآن جـ1 ص11,10.
88 - المجاز للمطعني جـ1 ص655.
89 - مجاز القرآن جـ1 ص128.
90 - المصدر نفسه جـ1 ص155.
91 - المائدة 6.
92 - مجاز القرآن جـ1 ص155.
93 - البقرة 223.
94 - مجاز القرآن جـ1 ص72.
95 - المجاز للمطعني جـ1 ص57.
96 - فاطر 13.
97 - مجاز القرآن جـ2 ص153.
98 - الكهف 42.
99 - مجاز القرآن جـ1 ص404.
100 - البقرة 93.
101 - مجاز القرآن جـ1 ص47.
102 - العلق 17.
103 - آل عمران 54.
104 - مجاز القرآن جـ1 ص95.
105 - يونس 21.
106 - مجاز القرآن جـ1 ص276.
107 - الأعراف 50.
108 - الجاثية 34.
109 - مجاز القرآن جـ1 ص215.
110 - المصدر نفسه جـ2 ص211.
111 - مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص471.
112 - المجاز للمطعني جـ1 ص59.
113 - مقدمة في أصول التفسير والإيمان لإبن تيمية ص64.